الشعراء من عهد الكميت وكثير والفرزدق ، الى زمن ابن الرومى الى عصر عمارة اليمنى الذى رثى دولة الفاطميين رثاء موجعاً ، وفى أشعار طالبى الدنيا الناصرين للدولة القائمة المؤيدين لدعواها ، كمروان بن أبى حفصة ، وفى نثر زعماء المذاهب ونظمهم فى بيان آرائهم والنضح عن مبادئهم ، كخطب واصل بن عطاء وشعر صاحب المرجئة الذى يقول منه :

نرجى الأمور إذا كانت مشابهة ... ولا نحاور فيمن جار أو عندا
ولا نرى أن ذنبا بالغ أحدا ... ما الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا

وشمول روح الدين أو مظهره لكل مرافق المجتمع وقواعده الدولة على هذا النحو ترك أثره فى الأدب عامة : إذ صبغ أكثره بصبغة الجد والرزانة والقصد فى القول واجتناب الايغال فى الخيال ، والولع بالحكم والعبر والأمثال ، ورغب الأدباء فى الأخبار الصادقة عن السلف من جاهليين واسلاميين ، وزهدهم فى الأساطير ومختلق الأحاديث ، والى رهبة الدين الذى كان عماد الدنيا والآخرة ترجع أشعار الزهد والوعظ التى يحفل بها الأدب كأشعار أبى العتاهية وابن عبد القدوس ، وإلى جلالته وجلالة الانتماء اليه ترجع مسحة التسامى والعفة التى تزين على شعر الشريف الرضى

كان الدين دائما منبث الروح ، وإلا فتجسم المظهر فى شؤون الحياتين ، وإن صدمته الأهواء السياسية كثيرا ، وغلبته الأهواء الفردية ، وتغافل عنه حماته فلم ينشطوا للذود عن حرماته إلا أن يكون فى ذلك قضاء لمآربهم أو شفاء لسخائمهم ، حتى كان من المتناقضات حقاً أن الأدب العربى الذى ازدهر فى ظل دول إسلامية حوى من جرىء القول ما لم يحو غيره .

وخلاصة القول أن كلا الأدبين العربى والانجليزى تأثر بدين قومه تأثرا بينا ، ولكن بينما كان تأثر الأخير بالمسيحية مقصوراً على عهود بذاتها وأمور بعينها ، ثم ركد أمر الدين ، وأحس الأدب أنه قد استفاد منه كل ما يمكنه أن يستفيد ، فانصرف عنه ، ظل للدين فى الأدب العربى دائما مكانة عالية وأثر بعيد ، وسيظل له مثل هذه المكانة ومثل هذا الأثر ، فى كل أدب يدين مجتمعه بالاسلام وينطق بالضاد .

فخرى أبو السعود

بين شوقى وابن زيدون *

بقلم الدكتور زكى مبارك

— ١ —

عرفنا ابن زيدون العاشق الذى يحسن التحدث عن مآسى القلوب ، ويكاد يعرف أسرار النفوس ، فماذا نقول عن شوقى ؟ لقد طال الحديث عن هذا الشاعر فى فصول هذا الكتاب ، ونخشى أن يتحيف حقوق من عرضنا لهم من الشعراء ، ولكن كيف نستكثر القول فى شوقى ، وقد بذ ابن زيدون ؟ إن نونية شوقى أعجوبة من الأعاجيب ، وقد أرسلها من الأندلس فى أعقاب الحرب العالمية فضج لها شعراء مصر ، وأجابه اسماعيل صبرى ، وحافظ ابراهيم ، وعبد الحليم المصرى ؛ ولكنهم عجزوا جميعاً عن الجرى فى ميدانه ، ولم يؤثر لهم فى معارضته شىء ذو بال بالقياس إلى نونية أمير الشعراء

ابتدأ ابن زيدون نونيته بشكوى البين والأعداء والزمان ، وكانت الأبيات السبعة التى تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يعبها ما وشيت به من الزخرف ، ولكن أين هى من بداية شوقى حين خاطب الطائر الحزين فى وادى الطلح بضاحية اشبيلية ؟ لقد تمثل الطائر شبيها به فى لوعته وجواه فاندفع يقول :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا ... نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يداً ... قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا ... أخا الغريب وظلاً غير نادينا
كل رمته النوى ، ريش الفراق لنا ... سهما ، وسل عليك البين سكينا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع ... من الجناحين عى لا يلبينا
فان يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا ... إن المصائب يجمعن المصابينا
لم تأل ماءك تحناناً ولا ظمأ ... ولا ادكاراً ولا شجواً أفانينا

* فصل من كتاب الموازنة بين الشعراء ، وستصدره مطبعة مصطفى الحلبى فى أوائل الشهر المقبل ، وهذا الفصل نموذج للفصول التى أضيفت الى الطبعة الجديدة

تجرُّ من فَنَنٍ ذيلاً إلى فَنَنٍ   وتسحب الذيلَ ترتادُ المؤاسينا
أساةُ جسمك شتى حين تطلبهم   فمن لروحك بالنُّطاس المُداوينا

والشاعر فى هذه الأبيات حيران، يجعل الطائر فى حالين: حال المغترب، وحال المقيم، فما تدرى أيبكى من الغربة أم ينوح من فقد الأليف؛ ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد نراه بلغ غاية الرفق حين قال:

تجرُّ من فَنَنٍ ذَيلاً إلى فَنَنٍ   وتسحبُ الذيلَ ترتاد المؤاسينا

وهى حال نشهدها فى الطائر المحزون، فقد نرى الطائر ينتقل على غير هُدىً من أيكٍ إلى أيكٍ، فنعرف أنه يبحث عمن يواسيه، ولكن أين من يواسى الطائر الحزين؟ إن شوقى نفسه أخطأ حين قال:

أساةُ جسمك شتى حين تطلبهم   فمن لروحك بالنُّطاس المُداوينا

فان الطائر لا يجد من يأسو جسمه، وإنما يجد من يذبحه ويشويه، والناس ألأم من أن يَطِبُّوا لطائر جريح!

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزمان إلى معاتبة حبيبته، فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد إلا الوفاء، أما شوقى فقد انتقل من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر، فقال:

واهاً لنا نازحىْ أيكٍ بأندلسٍ   وإن حللنا رَفيفاً من روابينا
رسمٌ وقفنا على رسم الوفاء له   نجيش بالدمع والإجلالُ يثنينا
لفتيةٍ لا تنالُ الأرضُ أدمعهم   ولا مفارقَهم إلاّ مصلّينا
لو لم يسودوا بدينٍ فيه منبهةٌ   للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرمٍ إلا إلى حرمٍ   كالخمر من بابل سارت لدارينا
لما نبا الخُلدُ نابت عنه نُسختهُ   تماثُلَ الوردِ خيريّاً ونسرينا
نسقى ثراهمْ ثناءً، كلما نُثرتْ   دموعُنا نُظمتْ منها مراثينا
كادت عيونُ قوافينا تحرّكهُ   وكِدنَ يوقظن فى الترب السلاطينا

وللقارىء أن يتأمل الحسن فى هذه الأبيات، فالشاعر يغلبه الدمع، وهو يتذكر ملوك الأندلس، ولكن الاجلال يثنيه عن البكاء، لأنه فى ديار قوم لم تنل الأرض أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود، فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله، وذلك من أبعد الغايات فى الثناء.

ويأبى شوقى إلا أن يحرص على المعانى الشعرية، فهو فى الأندلس لا يسرى من حرم إلا إلى حرم، ولكن كيف؟ كالخمر سارت من بابل إلى دارين! وقدسية الخمر لا تجوز فى غير مذاهب الشعراء

ثم قال فى الحنين إلى وطن النيل:

لكنّ مصرَ وإن أغضت على مقةٍ   عينٌ من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفّت تمائمُنا   وحول حافاتها قامت رواقينا

وهذا معنى قديم سبقه إليه من قال:

أحبُّ بلاد الله ما بين منعجٍ   إلىّ وسلمى لو يصوبُ سحابها
بلادٌ بها نيطتْ علىّ تمائمى   وأولُ أرضٍ مسَّ جسمى ترابُها

والبِكْرُ هو قول شوقى:

ملاعبٌ مرِحت فيها مآرُبنا   وأربُعٌ أنِستْ فيها أمانينا

وإنما كان هذا معنى بكراً لما فيه من طرافة الخيال، أرأيتم كيف تمرح المآرب، وكيف تأنس الأمانى؟

لقد رأيت شوقى أول ما رأيته سنة ١٩٢١، وكان دعانى للغداء عنده بالمطرية مع الأصدقاء الأكرمين مصطفى القشاشى، وسعيد عبده، وأحمد علام، فعجبت يومئذ لذلك الميسم الساحر وسألت نفسى: كيف كان ذلك الملاك فى صباه!

إن حنين شوقى إلى مصر حنينٌ عميق، وإنما كان كذلك لأن الشاعر شهد فى مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها إلا الأقلون؛ ودنيا شوقى لم تكن مثل دنيا الناس فى هذا الزمان، كانت الدنيا فى شباب شوقى تفيض بالبشر والايناس، وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مُضمَّخة بالسِّحر والفتون، وكان للجمال قُدسيَّة، وكان للصِّبا سلطان، وكانت خطوب الزمن لا تهدّ النفوس كما تفعل فى هذه الأيام

ومن البكر أيضاً قول شوقى:

بنّا فلم نخلُ من رَوحٍ يُراوحنا   من برّ مصرَ وريحانٍ يُغادينا
كأمّ موسى على اسم الله تكفلنا   وباسمه ذهبت فى اليمّ تُلقينا

يريد أن يقول إن مصر لم تُلقه فى يمّ النفى إلا خوفاً عليه من كيد فرعون، فرعون القرن العشرين المستر جون بول!

— ٢ —

تذكرون قول ابن زيدون:

يا سارىَ البرقِ غادِ القصرَ فاسقِ به   من كان صِرفَ الهوى والودّ يسقينا

واسألْ هُنالك هل عنى تذكُّرُنا
إلفاً تذكرهُ أمسى يُعنّينا

وهذا شعر جيل ، ولكن انظر كيف عارضه شوق فقال :

يا ساريَ البرقِ يرمى عن جوانحنا … بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
لما ترقرقَ فى دمعِ السماءِ دماً … هاجَ البكا فخضبنا الأرضَ باكينا
الليلُ يشهدُ لم نهتِك دياجيَهُ … على نيامٍ ولم نهتِفْ بسالينا
والنجمُ لم يرَنا إلاّ على قدمٍ … قيامَ ليلِ الهوى للعهدِ راعينا
كزفرةٍ فى سماءِ الليلِ حائرةٍ … مِمّا نُرَدِّدُ فيهِ حينَ يضوينا
باللهِ إن جُبتَ ظلماءَ العبابِ على … نجائبِ النور محدواً (بجرِّينا)
تَرُدُّ عنكَ يداهُ كلَّ عاديةٍ … إنساً يعِثْنَ فساداً أو شياطينا
حتى حوتكَ سماءُ النيل عاليةً … على الغيوثِ وإن كانت ميامينا
وأحرزتكَ شفوفُ اللازَوَرْدِ على … وشىِ الزبرْجدِ من أفوافِ وادينا
وحازكَ الريفُ أرجاءً مؤرَّجةً … ربت خمائلَ واهتزَّت بساتينا
فقفْ إلى النيلِ واهتفْ فى خمائلهِ … وانزل كما نزلَ الطَّلُّ الرَّياحينا
وآسِ ما باتَ يذوى من منازلنا … بالحادثاتِ ويضوى من مغانينا

انظروا . ابن زيدون يسأل البرق أن يسق القصر ، وشوق يسأل البرق أن يأسو المنازل الذاوية ، والمغانى الضاوية ، والمعنيان مقتربان ، ولكن شوق أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفق ، وانحداره من أرض إلى أرض ، وأعطى صوراً من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوقُ إلا شاعراً ودَّع دنياه حين ودَّع النيل

وقال ابن زيدون :

ويا نسيمَ الصَّبا بلِّغ تحيتنا … من لو على البعد حيَّا كان يحيينا

عارضه شوق فقال :

ويا معطِّرةَ الوادى سَرت سحراً … فطاب كلُّ طروحٍ من مرامينا
ذكيّةَ الذَّيل لو خِلنا غلالتها … قميصَ يوسف لم نُحسب مُغالينا
جَشِمتِ شوكَ السرى حتى أتيتِ لنا
بالورد كُتْباً وبالرَّيا عناوينا
فلوْ جزيْناكِ بالأرواحِ غاليـةً
عنْ طيبِ مسراكِ لم تنهضْ جوازينا
هل من ذيولكِ مِسكىٌّ نحمِّلُه … غرائبَ الشوقِ وشياً من أمالينا
إلى الذين وجدْنا وُدَّ غيرهمو … دُنيا ووُدَّهمُ الصافى هو الدِّينا

إن ابن زيدون لم يزد على أن قال : « يا نسيمَ الصَّبا » ، وهو تعبير ورد فى مئات القصائد ، أما شوق فراح يَفتنُّ افتناناً يدل على قوة الشاعرية ، وبراعة الخيال ، فوصف النسمة بأنها معطرة الوادى ، وأنها سارت فى السحَر فطاب بمسراها كلُّ مرمًى سحيق ، وأنها ذكيّةُ الذيل كأنها قميص يوسف ، وأنها جشِمت شوك السرى حتى أتت بالوُرْد مُجسماً فى رسائل ، وأتت بالرَّيا مُمثّلةً فى عناوين ، وشكر لها النُّعمى فقال :

فَلوْ جزَيْناكِ بالأرْوَاحِ غاليَةً
عنْ طيبِ مسراكِ لم تنهض جوَازينا

وابن زيدون يقول : « بلِّغْ تحيَّتنا » وهى عبارة جافيةٌ ، لأنها وردت فى صورة الأمر ، أما شوق فيترفق ، ويقول :

هَلْ من ذُيولِكِ مِسْكِىٌّ نُحَمِّلُهُ
غرائبَ الشَّوْقِ وشْياً منْ أماليِنا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحية ، وشوق يجمل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا ؛ أما هوى أحبابه الذين يتشوق اليهم فهو فى صفاء الدِّين

ولا ننكر أن بعض أخيلة شوق مقتبسَ من ابن زيدون ، فقول شوق :

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا … بعد الهدوء ويهمى من مآقينا

اختُلس برفق وحذق من قول ابن زيدون :

بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحُنا … شوقاً اليكم ولا جفّت مآقينا

والمعنى الذى عرضه ابن زيدون فى ثلاثة أبيات بسطه شوق فى ثمانية عشر بيتاً ، وإنما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون ، فكان لا بدّ له من توشيةٍ بارعة تُعفّى على النظرة الفطرية فى أبيات ابن زيدون ، ولابن زيدون فضل السبق ، ولشوق فضل البراعة فى تلوين الصور الشعرية ، وهو فضل ليس بالقليل

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأنس فقال :

حالت لفقدكُمو أيامُنا فغدت … سُودا وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانبُ العيش طلق من تألّفنا … ومربع اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هصرنا فُنُون الوصل دانية … قُطُوفُهُ فجنينا منهُ ما شينا
ليُسقَ عهدُكُمُ عهدُ السرور فما … كُنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا

وهذا شعرٌ صافى الديباجة ، رائع المعانى ، ولكن انظروا

كيف عارضه شوقي فجمع بين الأسى والفخر حين قال :

سَقياً لِعَهدٍ كأكنافِ الرُّبا رِفَةً (١)

أَنَّى ذَهبنا وأعطافُ الصِّبا لينا

إذِ الزّمانُ بنا غَيْناءُ زاهيةٌ ترفُّ أوقاتُنا فيها رياحينا

الوصلُ صافيةٌ والعيشُ ناغيةٌ والسعدُ حاشيةٌ والدهرُ ماشينا

والشمسُ تختالُ في العِقيانِ تحسَبُها

بلقيسَ ترفُلُ في وشي اليمانينا

والنيلُ يُقبلُ كالدنيا إذا احتفلت لو كان فيها وفاءٌ للمُصافينا

والسعد لو دام والدنيا لو اطردت والسيل لو عفَّ والمقدار لو دِينا

ألقى على الأرضِ حتى ردَّها ذهباً ماءً لمسنا به الإكسيرَ أو طينا

أعداهُ من يُمنِه (التابوتُ) وارتسمتْ

على جوانبه الأنوارُ مِنْ سينا

لهُ مبالغُ ما في الخُلقِ من كرمٍ عهدُ الكرامِ وميثاقُ الوفيِّينا

لم يجرِ للدهرِ إعذارٌ ولا عُرُسٌ إلاّ بأيامنا أو في ليالينا (٢)

ولا حوى السعدُ أطغى في أعنته منّا جياداً ولا أرخى ميادينا

نحنُ اليواقيتُ خاضَ النارَ جوهرُنا

ولم يَهُنْ بيدِ التشتيت غالينا

ولا يحولُ لنا صبغ ولا خلق إذا تلوّن كالحرباءِ شانينا

والقارئ حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدري أيهما أجود ، لأن ابن زيدون على قصر نفسه في هذا الشوط بلغ غاية الرشاقة حين قال :

وإذا هصرنا فنون الأنس دانية قطوفه فجنينا منه ما شينا

وبلغ غاية الدقة حين قال :

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا

والدقة في هذا البيت تؤخذ من صدق التعليل ، فالعيش لم تتسع جوانبه إلا بفضل التألف ، تألف القلبين ، واللهو لم يصف مورده إلا بفضل التصافي ، تصافي الحبيبين ، والدنيا لا كدر فيها ولا صفاء ، وإنما تصفو حين تصفو النفوس ، وتقسو حين تقسو القلوب ، فالزهر الذي يبسم لك لا يبسم لك وحدك ، وإنما تراه يخصك بالرفق لأن الدنيا صفت لك ، وقد يراه غيرك في ابتسامه صورة من صور العبوس ، والنهر الذي تنظر إليه في الليالي المقمرة فتراه عاشقاً ينازل القمر ويتلقى دعابته في حنان ، هذا النهر لا يتمثل لك كذلك إلا لأنك تشاهد أمواجه الفضية بقلب مرح وحس طروب ، وهو نفسه قد يبدو للمحزون صورة من صور الاكتئاب

ويروقنا قول شوقي :

سقياً لعهد كأكناف الرُّبا رفة أنَّى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا

إذ الزمان بنا غيناءُ زاهيةٌ تَرِفُّ أوقاتُنا فيها رياحينا

الوصلُ صافيةٌ ، والعيش ناغيةٌ والسعد حاشيةٌ ، والدهر ماشينا

والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت لو كان فيها وفاء للمصافينا

يروقنا هذا الشعر ، لأن الشاعر جعل عهده في نضرة الزهر الذي يتفتح في أكناف الربوات ، ولأنه رأى اللين في أيام الأنس شبيهاً باللين في أعطاف الصبا ، وأعطاف الصبا جوهرٌ نبيل لا يعرف طيب لينها إلا شاعر أمكنته من أعطاف الصبا سَورَةُ الصبوات ، ويروقنا أيضاً لطرافة هذا الخيال :

« ترف أوقاتنا فيها رياحينا »

ورفيف الأوقات معنىً يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن في أرجوحة اللهو الجموح

ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة لأن الشاعر يرى اقبال النيل كالدنيا حين تحتفل ، وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل ، ثم تأملوا روعة هذا الاستدراك :

« لو كان فيها وفاء للمصافينا »

ولكن هذه الطرافة في أخيلة شوقي لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كل شيء حين قال :

يا روضة طالما أجنت لواحظنا وردا جلاه الصبا غضاً ونسرينا

ويا حياة تملينـا بزهرتها منىً ضروباً ولذاتٍ أفانينا

ويا نعيما خطرنا من نضارته في وشي نعمى سحبنا ذيله حينا

إن لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون ؟ أترون العذوبة في الهتاف بالروضة التي « طالما أجنت لواحظنا وردا جلاه الصبا » ، تأملوا عبارة « أجنت لواحظنا » ، وانظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها المرموق ، والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة ، وإنما تهجم الروضة عليه فتعلمه كيف يهصر الأفنان ، وكيف يجني القطوف ، وعبارة

(١) الرفة : النضرة . (٢) الاعذار : طعام يتخذ لأيام السرور